

الملكة زنوبيا ... في موكب الأسرى!!

زنوبيا (ملكة سوريا) ملكة تندر (بالميرا) والشام والجزيرة ، وهى الزباء بنت عمرو ، سورية وأمها إغريقية وقد كانت زوجة لأذينة ملك تندر المملكة العظيمة التى تنتصب بشموخ فى وسط سوريا الملقب بسيد الشرق الرومانى وملك الملوك ، امتدت سلطته على سورية وسائر آسيا الرومانية ، وكثيراً ما حارب الفرس وردهم عن بلاده ، وكان إذا خرج إلى الحرب أناب الملكة زنوبيا لتحكم تندر بمهارة ، وكانت تندر (بالميرا) مدينة تجارية تقع فى وسط سوريا فى بادية الشام ، وتحيط بها الجبال ، وكانت محط قوافل الجمال ومحطة تجارية هامة على طريق الحرير .

وكانت الملكة زنوبيا قد اشتهرت بجمالها وولعها بالصيد والقنص ، قيل عنها أنها ذات رأى وحكمة وعقل وسياسة ودقة نظر وفروسية وشدة بأس وجمال فائق .

وتنقفت بالثقافة الهيلينية ، وكانت تتكلم الأرامية (اللغة السورية القديمة) وبعض اللاتينية (الرومانية) والإغريقية والقبطية ، وكان لها اطلاع على تاريخ الشرق والغرب ، وكانت تقرأ لهوميروس وأفلاطون وألفت تاريخاً عن الشرق وسوريا ومصر وآسيا .

ولما قتل الملك أذينة (٢٦٧م) بطريقة غامضة ، تولت الملك باسم ابنها وهب اللات ، وأصبحت زنوبيا ملكة الملكات وتولت عرش المملكة وازدهرت تدمر فى عهدا ، وأنشأت جيشاً قوياً واستولت على العديد من البلدان ، وأصبحت تدمر محط رحال التجار والقوافل ، وزاد ثراء المدينة ونافت روما فى العظمة والفاخرة والمكانة ، ولما ساءت العلاقات بينها وبين الإمبراطور الرومانى أرسل الإمبراطور لها جيشه للاستيلاء على تدمر فهزمته شر هزيمة ، بعدها توجهت لمصر وكانت تابعة للرومان واحتلتها ومنعت جيوشها عن روما، وعززت علاقاتها التجارية مع الحبشة وجزيرة العرب ، وتوسعت مملكتها حتى شملت باقى سوريا وأصبحت من شواطئ البسفور حتى النيل ، وأطلقت عليها الإمبراطورية الشرقية (مملكة تدمر) ، لكن الإمبراطور الرومانى أورليانوس حاول التفاوض مع الملكة زنوبيا لوقف زحف جيوشها مقابل الاعتراف بألقاب ابنها وامتيازاته ، فضربت النقود فى أنطاكية والإسكندرية عليها صورة وهب اللات على وجه وعلى الوجه الثانى صورة الإمبراطور أورليانوس .

وعهدت بملك مصر إلى ولدها وأزالت من النقود صورة الإمبراطور ونادت بالاستقلال الكامل عن روما ، فصمم الإمبراطور على التتكيل بها وسحق الدولة التكمرية ، فأرسل جيشاً رومانياً بقيادة بروبوس إلى مصر سنة ٢٧١م وجيشاً آخر بقيادة الإمبراطور أورليانوس نفسه توجه به إلى سوريا وآسيا الصغرى ليلتقى الجيشان فى تدمر وسط سوريا ، احتل بروبوس مصر وبلغ أورليانوس أنطاكية ، فهزم زنوبيا هناك فى معركة دامية ، مما جعلها تتسحب لتدمر ليتعقبها أورليانوس حتى بلغا مدينة حمص ، فدارت بينهما معركة شرسة ، وانهزم جيشها ، ووصل أورليانوس تدمر وحاصر أسوارها المنيعة حصاراً محكماً حتى نفذت مؤن الطعام بها ، وكانت قد حصنت المدينة ووضعت على كل برج من أبراج السور اثنين أو ثلاثة من المنجنيق تقذف بالحجارة المهاجمين

لأسوارها وتمطرهم بقذائف النفط الملتهبة ، والتي كانت تعرف بالنار الإغريقية، وقاومت الغزاة بشجاعة معلنة القتال حتى الموت وعرض أورليانوس عليها التسليم وخروجها سالمة من المدينة التي لن تمس ، لكنها رفضت وحاولت الهروب ووصلت نهر الفرات إلا أنها وقعت في الأسر واقتديت إلى أورليانوس وهو في ميدان القتال فأحسن معاملتها ، ثم اقتادها معه إلى روما ضمن موكب الأسرى الذي عرض في احتفالات بانخة تمجيداً للانتصار عام ٢٧٢م.

انتهت حياتها في منزل بسيط في تيبور بإيطاليا أعده لها أورليانوس ، وانتحرت بالسم ، بعدما حكمت تدمر ومصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى حتى أنقرة ، وكانت ملكة لواحدة من أهم الممالك في التاريخ ... مملكة تدمر .

" بابا نويل " ... هل هو شخصية حقيقية ؟

يعتقد الكثيرون أن " بابا نويل " أسطورة ابتدعها الناس لإدخال السرور على أطفالهم ... والحقيقة أن " بابا نويل " شخصية حقيقية حيث كان أسقفاً بمدينة ميلا في آسيا الصغرى ... وكان يعيش في القرن الرابع الميلادي ، عرف بحبه للناس والفقراء عامة ، ووصلت شهرته إلى جميع أنحاء العالم ، اسمه بالكامل " سانت نيكولاس " ... ولكن الأجيال اختصرت اسمه حتى يلائم السنة الأطفال فاصبح "سانت كلوز" بالإنجليزية و " بابا نويل " بالفرنسية ... وقد ظل يؤدي هذا الرجل واجبه الديني والإنساني حتى توفي في ٦ ديسمبر ٣٤٥ م .

وحتى الآن ما زال الأطفال يطمون به وينتظرونه في ليلة عيد الميلاد عند المسيحيين الغربيين ، فيعدون له الأحذية والجوارب ليملاها لهم بالهدايا واللعب ، ويتصوره الأطفال ويصورونه لهم في شكل رجل عجوز ذي لحية بيضاء طويلة ... يلبس معطفاً أبيضاً وطرطوراً مغطى بالثلج الذي يتساقط ... ويحمل بابا نويل كيساً مملوئاً بالهدايا فوق ظهره ، ولكنه لا يعطي الهدايا لكل الأطفال وإنما يخص هؤلاء المؤدبين المجدين منهم فقط ، أما الذين لم يستمعوا إلى نصائح والديهم فيحرمون دائماً من هداياهم ، فإذا جاء الصبح لم يجدوا الهدايا في أحذيتهم ... وإنما وجدوا بدلاً منها أثراً يدل على أن بابا نويل قد زارهم ولكنه حرمهم من هداياهم .

أما الصورة الحديثة لبابا نويل ، فقد ولدت على يد الشاعر الأمريكي كلارك موريس الذي كتب سنة ١٨٢٣م قصيدة بعنوان " الليلة التي قبل عيد الميلاد " يصف فيها هذا الزائر المحبب ليلة عيد الميلاد .

وفي عام ١٨٨١م ، قام الرسام الأمريكي توماس نيست في جريدة هاربرس بإنتاج أول رسم لبابا نويل ، كما نعرفه اليوم ، ببذلته الحمراء الجميلة وذقنه البيضاء الطويلة وحذائه الأسود اللامع مستنداً إلى القصص الأوربية حوله، وعلى أثر ذلك اشتهرت هذه الشخصية في أمريكا وبعدها في أوروبا ، ثم في سائر أقطار العالم ، ومع تغير المكان تولى بابا نويل عن حماره الذي كان يحمل عليه الهدايا والألعاب ليمتطي زحافة على الجليد ويجرها ثمانية غزلان.

الشعراء الصعاليك

الشعراء الصعاليك ... هم مجموعة من شعراء العصر الجاهلي ، وكانوا إما ممن نبذتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم مثل " حاجز الأزدي " ، وإما من أبناء الإماء الحبشيات الذين نبذهم أبائهم ولم يعترفوا بنسبهم إليهم مثل " تأبط شراً " و" الشنفرى " ... والمجموعة الثالثة لم تكن من المنبوذين من القبائل ولا من أبناء الإماء الحبشيات وإنما احترفت الصعلكة احترافاً مثل " عروة بن الورد العبسى " .

وتتردد فى أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والبخلاء ، ويمتازون بالشجاعة والجرأة والصبر عند البأس ، كما اشتهروا بسرعة العدو حتى سماوا " بالعدائين " وضربت بهم فى ذلك الأمثال فقول " أعدى من الشنفرى " ... وتروى عنهم قصص كثيرة فى هذا الموضوع .

وكان الصعاليك يحسنون ركوب الخيل واستخدامها فى الإغارة ... وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الخصب ، كما كانوا يتربصون بالقبائل التجارية وقوافل الحج الذاهبة إلى مكة ، وتغنوا بهذه المغامرات فى أشعارهم ... وعلى الرغم من أن فريقاً من الصعاليك قد عاش سفايحاً لا يرعى

عهداً ولا ذمة ، إلا أننا نجد كثيراً منهم اشتهروا بالبِرِّ بالأقارب والأهل والشعور بالكرامة ، وكأنما الصعلكة قد تحولت في أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية في أوروبا في العصور الوسطى .

ومن أشهر هؤلاء " عروة بن الورد" الذى قيل عنه أن قبيلة " عبس " كانت إذا أجدبت أتى أناس منهم ممن أصابهم جوع شديد ، فجلسوا أمام بيت "عروة" حتى إذا أبصروه قالوا " أيا أبا الصعاليك أغثنا " فكان يرق لهم ويخرج معهم ليحصل على ما يشبع جوعهم ويكفيهم ... وهو يعبر بذلك عن نفس كبيرة فهو لا يغزو للنهب والسلب " كالشنفرى " و" تأبط شراً " ، وإنما يغزو ليعين الفقراء والمستضعفين حتى أطلق عليه " أبو الفقراء " و " أبو المساكين " .

والطريف أن " عروة بن الورد" لم يغير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يختار لغارته ممن عرفوا بالبخل ، ومن لا يمدون للمحتاج فى قبائلهم يد العون ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم ... وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشئ على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظه سواء شاركوه فى الغارات التى يشنها أو قعد بهم المرض أو الضعف ، وهو بذلك يضرب مثلاً رفيعاً فى الرحمة والإيثار ... وهو يعبر عن نفسه فى هذا بقوله :

إنى امرؤ عانى إنائى شركة	وأنت امرؤ عانى إنائك واحد
أتهازأ منى أن سمنت وأن ترى	بجسمى شحوب الحق ، والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة	وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

وقد فاق إعجاب الناس بكرم " عروة بن الورد " الحد ، لدرجة أن عبدالمك بن مروان كان يقول : " من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد " .

المعلقات

قصائد اعتبرها العرب أروع ما نظمه شعراء الجاهلية ، واختلف الكثيرون في سبب تسميتها بالمعلقات ، ف قيل سميت بها لأنها كانت بعد نيلها الإعجاب تكتب بخيوط الذهب على الحرير المصري وتعلق في أستار الكعبة ولذلك سميت أيضاً " المذهبات " ، ويرد على هذا بأن العرب في الجاهلية كانوا أميين ... وقيل سميت المعلقات لأنها كانت تسمى " السموط " أي العقود النفسية ومن شأنها التعليق ، وقيل سميت بهذا الاسم لعلوقها بالذاكرة ... كما يذكر البعض أنها سميت في البداية " الطوال المشهورة " .

وهناك اختلاف في عددها فقال الغالبية أنها سبعة بينما ذكر البعض أنها عشرة ... وقد أجمع النقاد على معلقات : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن ابى سلمى ، وعنترة بن شداد ، بينما يختلفون حول قصائد عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، ولبيد بن ربيعة ، والنابغة الذبياني ، والأعشى ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل .

وتمثل المعلقات أنصح صور الشعر الجاهلى شكلاً ومضموناً فأكثرها يبدأ بالوقوف على الأطلال ورحيل الحبيبة ، وهى تصور الحياة الجاهلية ومثلها العليا كما تصور المثل الأعلى فى الفن الشعرى .

العصور الوسطى

استمرت الفترة التي يطلق عليها "العصور الوسطى" ألف سنة وتسمى المئات القليلة الأولى من هذه الفترة بالعصور المظلمة ... ويمكن القول بأن العصور الوسطى بدأت في عام ٤٧٦ م بانتهاء الإمبراطورية الرومانية التي كانت آخذة في الضعف ، مما اضطرها إلى استدعاء جنودها الذين كانوا يرابطون في الجزر البريطانية وشمال أوربا وبعض الأجزاء البعيدة عن الإمبراطورية ليحموا روما ، ذلك أن القبائل الهمجية البربرية كانت قد أخذت تتوغل داخل الإمبراطورية آتية من الشمال والشرق ، وبرهنت هذه القبائل على أنها أقوى من الرومان عندما حشدت جيوشها وانقضت على غرب أوربا الذي كان خاضعاً لروما.

وكان هؤلاء البرابرة رجالاً أشداء ومحاربين متوحشين ، فقد نهبوا قصور حكام روما وأتلفوا الطرق المؤدية إليها ، ولم يكن البرابرة يعرفون القراءة والكتابة ، ولم يكونوا يعبأون على الإطلاق بعلم المصيريين القدماء والبابليين ، ولهذا فإن الحياة في البلدان التي سيطروا عليها لم تكن بأحسن حال من الحياة التي كان يعيشها سكان الكهوف في العصور المبكرة ... ولكن بمرور الوقت بدأ البرابرة في الاستقرار في النهاية وأصبح كثير منهم زراعاً ، ولكن

نظراً لكثرة الغابات فى أجزاء كثيرة من أوربا فقد انتشرت فيها عصابات اللصوص ، ولما كانت المدن صغيرة ومتباعدة عن بعضها البعض ، فإن كثيراً من الناس كانوا يخشون الخروج من مدينة إلى أخرى للتجارة.

وبينما كانت أوربا تعيش عصورها المظلمة كانت الأجزاء الأخرى من العالم تسير نحو التقدم ، كالمسلمين الذين انتشروا فى الشرق الأوسط وأفريقيا إلى أسبانيا ، والصينيين الذين كانوا أكثر تقدماً من الأوربيين ، كذلك نجد فى الإمبراطورية البيزنطية ازدهاراً فى الفن والعلم ، وعلى هذا فإن العصور المظلمة كانت مظلمة فى أوربا فقط.

وكان من نتيجة الفوضى التى عاشتها أوربا فى هذه الفترة أن قام نظام الإقطاع الذى أعان الناس على الخروج من الحالة السيئة التى تردوا فيها ، فارتبط عامة الشعب بالأسياء الذين كانوا يعيشون فى قلاع ضخمة ، وكان كثير من العامة يعملون عبيداً أو كالعبيد ، وكانوا يسمون " رقيق الأرض " ويقومون بالعمل من أجل السادة دون أن يتقاضوا أجراً عن عملهم سوى الطعام والمأوى ، ولم يكن فى استطاعتهم ترك سادتهم الذين كانوا يقومون بحمايتهم ، وكان قصر السيد أشبه بالقلعة الحصينة.

وكنلك كان عهد الإقطاع عهد الفروسية ، فلقد كان الفرسان يقسمون أن يقولوا الصدق دائماً ، وينصروا الحق ، ويزودوا عن شرف أسيادهم ويحموا الفقير والضعيف .

الغجر

قد لا يعرف الكثيرون شيئاً عن قصتهم الأولى ... ولكن من الثابت أنهم قبائل رحل يتنقلون من مكان إلى مكان ... موطنهم الأصلي شمال الهند ... ومنها انتشروا غرباً إلى الشرق الأدنى ومصر ثم عبروا البوسفور إلى أوروبا أثناء القرون الوسطى واستوطنوا بلاد البلقان ... وتحت الضغط التركي انتشروا إلى المجر وبولندا ووسط أوروبا حتى وصلوا إنجلترا .

وفى أوروبا ظل الغجر يتنقلون فيذهبون إلى الشمال فى الصيف وإلى الجنوب فى الشتاء ، وكانوا يسافرون فى " عربات " تجرها الجياد ، وإذا ما حل الليل أقاموا نيراناً وأخذوا يغنون ويرقصون حولها ... وسرعان ما اشتهروا بتجارتهم فى الخيول ، كما كان بعضهم حدادين مهرة ، ونبغ بعضهم فى الموسيقى حتى أن عدداً من المؤلفين الموسيقيين قد اقتبس موسيقى الغجر فى مقطوعاتهم ... واشتهر الغجر كذلك بقراءتهم للمستقبل .

وقد تبدو حياة الغجر سعيدة جداً لا يشوبها أية هموم ، حتى أن كثيراً من الناس العاديين يتمنون أن يعيشوا مثل هذه الحياة السهلة ... لكن فى الحقيقة أن الغجر لم يعاملوا معاملة حسنة فى كثير من الأماكن ، وواجهوا ظروفاً صعبة ربما لأن الكثير من سمات الغجر وتصرفاتهم لا تروق للشعوب المتحضرة ،

وربما يكون هذا سبباً فى أن المراجع التاريخية تحاول إثبات أنهم ليسوا أوربى
النشأة ، وقد أدى ذلك أن تعرض الغجر لممارسات عدوانية من الشعوب
المستقرة على مر التاريخ ، وتمثلت الاعتداءات عليهم فى الترحيل القسرى ،
وعدم الاعتراف بهم كمواطنين فى البلدان التى يقيمون فيها ، حيث تم ترحيلهم
من مناطق عديدة فى أوربا ، وقد تمثلت الكراهية للغجر فى الأمر الذى أصدره
ملك بروسيا عام ١٧٢٥م ويقضى بقتل كل غجرى فوق الثامنة عشرة من
العمر ، والقوانين النازية التى بدأت بإلزام الغجر الذين ليس لهم مهنة ثابتة فى
ألمانيا بالعمل القسرى (السخرة) وقد طبق هذا النظام فى عدد من الدول
الأوربية وانتهى الأمر بأن وضعهم النظام النازى فى مرتبة متدنية فى الترتيب
العرقى للنظام النازى وجمعهم بعد ذلك فى حظائر بأسوار كالحوانات وقتل
منهم أعداداً كبيرة قبل نهاية الحرب العالمية الثانية.

أما المهن التى يمتنها الغجر فهى تخضع لطبيعة حياتهم المتنقلة حيث
لا يسمح لهم بامتلاك الأراضى ، وفى غالب الأحيان تتمثل فى تجارة الحيوانات
كالخيول ، وأنواع التجارة الصغيرة المتنقلة ، والصناعات اليدوية ، كما
يشتهرون بتقديم الموسيقى وألعاب السيرك.

موقعة اليرموك

كان أبو بكر الصديق قد أرسل خالد بن الوليد على رأس جيش إلى العراق ، ثم أرسل أربعة جيوش إلى بلاد الشام لغزوها من جهات مختلفة ... فأرسل " هرقل " قيصر الروم إلى كل جيش جيشاً يضاعفه في العدد ... فرأى قواد جيوش المسلمين الأربعة أن يجتمعوا معاً ، وعلم بذلك هرقل فأمر جنوده أن ينزلوا على نهر اليرموك في سوريا فنزلوا بين النهر وبين واد عميق كأنه خندق يعرف بالواقوصة ، وكان عددهم أكثر من مائتي ألف جندي وكان ذلك عام ٦٣٤ م ... وكان رأيهم أن الوادي والنهر يحميان جانبيهم .

ونزل المسلمون أمامهم على نفس الضفة من النهر ، فصار الروم كأنهم محصورون ولا طريق أمامهم سوى ناحية العرب ... وحفر الروم بينهم وبين المسلمين خندقاً ، وأخذوا يناوشون المسلمين ثلاثة أشهر ، وأرسل المسلمون خلال هذه الفترة إلى أبي بكر كي ينجدهم بنصف جنود العراق ، وبالفعل أرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن ينجدهم بنصف جنوده ، وسار خالد بن الوليد مسرعاً حتى بلغ الشام وانضم إلى معسكر المسلمين ليصبح عددهم حوالي أربعين ألفاً .

ورأى خالد أن رئيس كل جيش منهم مستقلاً برأيه ... فاتفق معهم على

أن يتولى كل أمير القيادة يوماً ، وبدأ هو باليوم الأول ، فعبأ جيشه تعبئة لم يسبق للعرب مثلها ، وهاجم بهم الروم ، فخرجوا من خندقهم ، وهجم خالد بقلب الجيش ففرق بين فرسانهم والمترجلين منهم ورأى فرسانهم أنهم أصبحوا وسط المسلمين ففروا إلى الصحراء ، ثم أطبق المسلمون على الأعداء فردوهم إلى خندقهم واقتحموه عليهم ، وأقبل الليل فلم يوقف المسلمون القتال ، وحاصروا الروم فتساقطوا فى الهوة من جانب وفى النهر من جانب آخر ، وتم النصر للمسلمين ولم ينج من الروم غير عدد قليل .

وكانت هذه الموقعة أعظم المواقع بين المسلمين والروم ، مع الفارق الكبير فى العدد بينهم ، ولم يثبت للروم جيش أمام المسلمين بعد ذلك ... وفى أثناء تلك الموقعة جاء نبأ موت أبى بكر وعزل خالد عن قيادة الجيش ، وتولية أبى عبيده القيادة ، فقبل خالد ذلك ورضخ لأبى عبيده فى الرأى والجهاد وسارا لفتح دمشق وهكذا أصبحت سوريا كلها فى أيدى المسلمين .

وقبل أن يرحل " هرقل " عن سوريا وقف على مرتفع من الأرض ، ثم التفت إلى الشام وقال يودعها الوداع الأخير " السلام عليك يا سوريا سلام لا لقاء بعده " ... وهرب إلى القسطنطينية .

الحجاج بن يوسف الثقفي

احتل الحجاج بن يوسف الثقفي (٦٦١ - ٧١٤ م) مكانة متميزة بين أعلام الإسلام ، ويندر أن تقرأ كتاباً في التاريخ أو الأدب ليس فيه ذكر للحجاج الذي خرج من سواد الناس إلى الصدارة بين الرجال وصانعي التاريخ بملكاته الفردية ومواهبه الفذة في القيادة والإدارة .

ولا يختلف أحد في أنه اتبع أسلوباً حازماً مبالغاً فيه ، وأسرف في قتل الخارجين على الدولة ، وهو الأمر الذي أدانه بسببه أكثر المؤرخين ، ولكن هذه السياسة هي التي أدت إلى استقرار الأمن في مناطق الفتن والقلقل التي عجز الولاة من قبله عن التعامل معها .

ولد الحجاج بن يوسف في الطائف ، ونشأ في أسرة كريمة من بيوت ثقيف ، وكان أبوه رجلاً ثقيفاً على جانب من العلم والفضل ، وقضى معظم حياته في الطائف ، يعلم أبناءها القرآن الكريم دون أن يأخذ عليه أجراً .

حفظ الحجاج القرآن على يد أبيه ثم تردد على حلقات أئمة العلم من الصحابة والتابعين ، ثم اشتغل وهو في بداية حياته بتعليم الصبيان ، شأنه في ذلك شأن أبيه .

لفت الحجاج أنظار الخليفة عبد الملك بن مروان ، ورأى فيه شدة وحرماً وقدرة وكفاءة ، وكان فى حاجة إليه ، حتى ينهى الصراع الدائر بينه وبين عبد الله بن الزبير الذى كان قد أعلن نفسه خليفة سنة (٦٤ هـ - ٦٨٣ م) بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ودان له بالولاء معظم أنحاء العالم الإسلامى .

حاصر الحجاج مكة المشرفة ، وضيق الخناق على ابن الزبير المحتمى بالبيت ، وكان أصحابه قد تفرقوا عنه وخذلوه ، ولم يبق سوى قلعة صابرة ، ولم تغن عنه شيئاً ، ولم تستطع الدفاع عن المدينة المقدسة التى يضربها الحجاج بالمنجنيق دون مراعاة لحرمتها وقداستها ، حتى تهدمت بعض أجزاء من الكعبة ، وانتهى القتال باستشهاد ابن الزبير والقضاء على دولته ، وعودة الوحدة للأمة الإسلامية التى أصبحت فى ذلك العام (٧٣ هـ - ٦٩٣ م) تدين بالطاعة لخليفة واحد ، وهو عبد الملك بن مروان .

وكان من أثر هذا الظفر أن أسند الخليفة إلى الحجاج ولاية الحجاز مكافأة له على نجاحه ، وكانت تضم مكة والمدينة والطائف ، ثم أضاف إليه اليمن واليمامة فكان عند حسن ظن الخليفة وأظهر حرماً وعزماً فى إدارته حتى تحسنت أحوال الحجاز فأعاد بناء الكعبة ، وحفر الآبار ، وشيد السدود .

بعد أن أمضى الحجاج زهاء عامين والياً على الحجاز نقله الخليفة والياً على العراق بعد وفاة أخيه بشر بن مروان ، وكانت الأمور فى العراق بالغة الفوضى والاضطراب ، تحتاج إلى من يعيد الأمن والاستقرار ، ويسوس الناس بعد أن تقاعسوا عن الخروج للجهاد وركنوا إلى الدعة والسكون ، واشتدت معارضتهم للدولة ، وازداد خطر الخوارج ، وقويت شوكتهم بعد أن عجز الولاة عن كبح جماحهم .

ولبى الحجاج أمر الخليفة وأسرع فى سنة (٧٥ هـ - ٦٩٤ م) إلى الكوفة ، وفى أول لقاء خطب فى المسجد خطبة عاصفة مشهورة أنذر فيها وتوعد المخالفين والخارجين على سلطان الخليفة والمتكاسلين عن الخروج لقتال الخوارج الأزارقة .

واتبع الحجاج القول بالفعل ونفذ وعيده بقتل واحد ممن تقاعسوا عن الخروج للقتال ، فلما رأى الناس ذلك تسارعوا نحو قائداهم المهلب لمحاربة الخوارج الأزارقة ، ولما اطمأن الحجاج إلى استقرار الأوضاع فى الكوفة ، ذهب إلى البصرة تسبقه شهرته فى الحزم ، وأخذ الناس بالشدة والصرامة .

وما كاد الحجاج يقضى على فتنة الخوارج حتى شبت ثورة عارمة دامت ثلاث سنوات (٨١ - ٨٣ هـ - ٧٠٠ - ٧٠٢ م) زعزت استقرار الدولة وكان يقودها " عبد الرحمن بن الأشعث " أحد رجال الحجاج الذى أرسله على رأس حملة لإخضاع الأجزاء الشرقية من الدولة ، وبعد أن حقق ابن الأشعث عدداً من الانتصارات غره ذلك ، وأعلن العصيان ، وبدلاً من أن يكمل المهمة المنوط بها عاد ثائراً على الدولة الأموية مدفوعاً بطموحه الشخصى وتطلعه إلى الرئاسة والسلطان .

ووجد فى أهل العراق ميلاً إلى الثورة والتمرد على الحجاج ، فتلاقحت الرغبتان فى شخصه ، وأزره عدد من كبار التابعين ، وحالف النصر ابن الأشعث فى جولاته الأولى مع الحجاج ، واضطرب أمر العراق وسقطت البصرة فى أيدي الثوار ، غير أن الحجاج نجح فى أن يسترد أنفاسه ، وجاء المدد من دمشق وواصل قتاله ضد ابن الأشعث ، ودارت معارك طاحنة حسمها الحجاج لصالحه وتمكن من سحق عدوه فى معركة دير الجماجم سنة (٨٣ هـ - ٧٠٢ م) والقضاء على فتنته .

ثم عاود الحجاج سياسة الفتح ، وأرسل الجيوش المتتابعة ، واختار لها القادة الأكفاء ، مثل قتيبة بن مسلم الباهلي ، الذي ولاه الحجاج خراسان سنة (٨٥ هـ - ٧٠٤ م) وعهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد فأبلى بلاء حسناً ونجح فى فتح العديد من النواحي والممالك والمدن الحصينة ، الواقعة على حدود الصين المتاخمة لإقليم ما وراء النهر وانتشر الإسلام فى هذه المناطق وأصبح كثير من منها مراكز مهمة للحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند وبلاد السند.

وكان الحجاج يدقق فى اختيار ولاته وعماله ، ويختارهم من ذوى القدرة والكفاءة ، ويراقب أعمالهم ، ويمنع تجاوزاتهم على الناس ، وقد أسفرت سياسته الحازمة عن إقرار الأمن الداخلى والضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق .

ويذكر التاريخ للحجاج أنه ساعد فى تعريب الدواوين ، وفى الإصلاح النقدي للعملة ، واصلاح حال الزراعة فى العراق بحفر الأنهار والقنوات ، وإحياء الأرض الزراعية ، واهتم بالفلاحين وأقرضهم ووفر لهم الحيوانات التى تقوم بمهمة الحرث وذلك ليعينهم على الاستمرار فى الزراعة .

ومن أعظم أعمال الحجاج ما أمر به نصر بن عاصم بوضع النقاط على الحروف العربية من أجل توحيد نطق القرآن الكريم ، ومنع التحريف ، وأمر بكتابة مصاحف عديدة موحدة ، وبعث بها إلى مختلف البلاد.

أول من وضع النقاط على الحروف العربية

نصر بن عاصم بناءً على طلب الحجاج بن يوسف الثقفي ... ذلك أن رجلاً رومياً جاء إلى الحجاج وألقى بعض الأبيات الشعرية بطريقة مضحكة لأنها لم تكن منقوطة ونطقها على هواه فتغير المعنى تماماً ، فغضب الحجاج وأمر بجلده ، فتوسط لدى الحجاج العالم (نصر بن عاصم) ليعفو عنه فقبل الحجاج شفاعته نصر وطلب منه أن يجد طريقة كي يتلقى الناس خاصة الأعاجم الوقوع في الخطأ واللحن في اللغة ، فكان أن وضع نصر بن عاصم النقاط فوق الحروف وتحتها على أن تكون باللون الأسود أى بنفس لون الحروف المكتوبة حتى تختلف في لونها عن النقاط الخاصة (بعلم النحو) .

ذلك أن علي بن أبي طالب كان قد طلب من أبو الأسود الدؤلي وضع قواعد لضبط الكلمات (علم النحو) وقام أبو الأسود الدؤلي باستخدام النقاط الحمراء في هذا المجال ، فكانت علامة الفتحة نقطة حمراء فوق الحرف ، وعلامة الكسرة نقطة حمراء أسفله ، وعلامة الضمة نقطة حمراء بين أجزاء الحرف ... وهكذا .

وفي العصر العباسي قام العالم الخليل بن أحمد فعدل في نقط أبو الأسود الدؤلي ، وجعل الضمة واواً صغيرة تكتب فوق الحرف ، والفتحة ألفاً صغيرة

فى وضع أفقى فوق الحرف ، والكسرة ياءً صغيرة تكتب تحت الحرف ، ثم وضع للشدة علامة رأس الشين ، وهكذا ، وبذلك تميزت نقط الحروف عن علامات التشكيل . من أجل قراءة صحيحة خالية من التحريف.

أول عملة عربية

قبل الإسلام لم يكن للعرب عملة خاصة بهم ، بل عرفوا الدراهم الساسانية والدنانير البيزنطية وكان لهم محاولات لإصدار عملة عربية بدأها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم معاوية بن أبى سفيان الذى صك عملة على الطراز البيزنطى ، إلا أن هذه المحاولات لم تكن محاولات خلق وابتكار بقدر ما كانت عمليات تقليد للنقود البيزنطية والساسانية واستمرت هذه المحاولات فى التقليد إلى عهد عبد الملك بن مروان ٦٨٥ م .

ولإصدار أول عملة عربية قصة ، فقد كان بين الدولة العربية الإسلامية والدولة البيزنطية معاهدة مهادنة لمدة عشر سنوات وتقضى المعاهدة بأن تدفع الدولة العربية إتاوة سنوية للدولة البيزنطية قدرها ألف دينار من الذهب ، ويروى التاريخ أن نزاعاً نشأ بين عبد الملك بن مروان " الخليفة الأموى " وجوستيان امبراطور الروم ، على أثر رسالة تسلمها من عبد الملك صدرها بالآية الكريمة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) ﴾ مما اغضب امبراطور الروم فقرر أن يطبع على العملة البيزنطية ما يسئ للمسلمين ، عندها قطع عبدالمك عليه الطريق وأصدر عملة عربية تساوى فى وزنها وقيمتها انعملة البيزنطية ولكنها تخلو من النقوش البيزنطية ولا تحمل صورة هرقل ، بل الآية

الكريمة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ وعلى ظهرها كتابة نصها
"بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سنة وسبعون " وبذلك نجح عبد الملك فى
إصدار أول عملة عربية .